

الموارد المالية والأوضاع الاجتماعية لتاهرت

كما ورد عن رسالة ابن صغير المالكي ت ٢٩٠هـ / ٩١٢م

علي رؤوف المالكي^{*}

المقدمة:

بسم الله الرحمن الرحيم وله الفضل وآلمنه تعالى الله رب العالمين بارئ النسم دافع النقم مخرج النور من الظلم وصلى الله تعالى على خير خلقه أبي القاسم محمد وأهل بيته الطيبين الطاهرين وبعد ...
فان تاريخ الأمم هو الهوية الإنسانية التي يسير بها كل جيل نحو المستقبل لما يخلده هذا التاريخ من منجزات مادية وغير مادية تُستذكر كمقوم أيولوجي لكل امه من الأمم الماضية ، ولهذا فان تراث الإنسانية أصبح أرضا غناء للفكر والحضارة والثقافة المتجددة التي عكسها مؤرخوا تلك الفترة في مؤلفاتهم وكتاباتهم .

ولهذا نحن ننطلق من هذه السباب في عرض أخبار تاهرت في عهد الدولة الرستمية وحسب ماورد في كتاب ابن صغير الذي حاول قدر المستطاع ان يعطينا فكرة او أنموذج عن طبيعة الأحوال الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في تاهرت في عهد بني رستم .

اشتمل البحث على اربعة محاور مهمة اشتمل المحور الاول فيها على عرض اهمية كتاب ابن صغير وهو اخبار الائمة الرستميين الذي تم تاليفه في نهاية القرن الثالث للهجرة حيث كان ابن صغير يعتبر مؤرخ الدولة الرستمية في تلك الفترة .. اما المحور الثاني فقد تضمن عرض طبيعة الواقع الاقتصادي في تاهرت في عهد عبد الرحمن بن رستم حسب ماورد عن لسان ابن صغير والتي عرضها في صورة من الشواهد الاجتماعية والاقتصادية لطبيعة الحياة هناك . اما المحور الثالث فقد تطرقت فيه الى الوضعية العامة للمجتمع التاهرتي وطبقاته كما اوردها ابن صغير وحسب القبائل والاجناس سواء من العرب او اليهود او المسيحيين . في حين تكلمت في المحور الرابع عن الطبقة الاجتماعية في تاهرت وموقف المذهب الاباضي منها نتيجة لما حصل من تطور اقتصادي عرفته هذه المدينة .

اما بالنسبة الى اهم المصادر التي اعتمدت عليها في البحث كان اهمها كتاب اخبار الائمة الرستميين لابن صغير ، وكتاب البيان المغرب لابن عذارى ، وكتاب المسالك والممالك للبكري ، وكتاب طبقات المشائخ للدرجيني ، اما عن المرجع فكان اهمها كتاب الخوارج في بلاد المغرب لمحمود اسماعيل ، كتاب

^{*} مدرس مساعد في جامعة القادسية / كلية التربية.

العلاقات الاقتصادية والثقافة للدولة الرستمية لادريس صالح الحرير ، وكذا تاريخ الدولة الرستمية لابراهيم بحاز ..

المحور الاول // أهمية كتاب "أخبار الأئمة الرستميين" لابن الصغير المالكي:

لقد تم تأليف رسالة او كتاب ابن صغير في نهاية القرن الثالث الهجري التاسع الميلادي من قبل ابن صغير الذي اعتبر مؤرخ الدولة الرستمية حينذاك رغم انه لم يكن اباضي المذهب . وابن صغير ابي زكريا يحيى اعتمد في تاليفه على مصدرين احدهما مارواة مشافهه عن اباضية تاهرت من ذلك روايته بخصوص مؤسس الدولة الرستمية عبد الرحمن بن رستم اما المصدر الثاني فيشمل مشاهداته الشخصية باعتباره معاصرا للأحداث التي دونها في كتابة هذا .

تتجلى أهمية هذا الكتاب في أن ابن الصغير عاش في مدينة تاهرت خلال حكم أبي اليقظان بن الأفلاج، ودليل ذلك حديثه عن المناظرة التي جرت على ضفة نهر مينة بين المعتزلة والأباضية إذ يذكر رجلاً يسمى أبو العبيدة الأعرج فيقول: "وقد رأيت أنا هذا الرجل وجلست إليه..."^(١)

ويتحدث عن مهنته ورغبته في طلب العلم: "إن لي في الرهانة دكاناً أبيع فيه وأشتري، وأتركه وأتي إليك [يقصد أبا عبيدة] فيأتيك الناس فتشتغل عني لا أنا بدكاني ولا أنا بمقابلة كتابي ثم يضيف على لسان أبي عبيدة: "إن هذا اليوم لهذا الفتى [ويقصد ابن الصغير]"^(٢) .

ما يزيد من أهمية هذا الكتاب هو انتماء ابن الصغير إلى مذهب غير مذهب الإباضية، لكن مهما كان مذهبه فقد تحرى الموضوعية في دراسته حيث يقول: "وإن كنا للقوم مبغضين ولسيرهم كارهين، ولمذاهبهم مستقلين، فنحن وإن ذكرنا سيرهم على ما اتصل بنا، وعدلهم فيما ولوه فلسنا ممن تعجبه طلاوة أفعالهم ولا حسن سيرهم" لعل أهم ما نلمسه من هذا الكتاب إعجاب ابن الصغير ببعض الأئمة الرستميين ويظهر ذلك جلياً حين يقول عن عبد الرحمن بن رستم: "لما ولي عبد الرحمن بن رستم ما ولي من أمور الناس شمر منزله وأحسن سيرته وجلس في مسجده للأرملة والضعيف ولا يخاف في الله لومة لائم..."^(٣)

ورغم ذلك فقد كان ابن الصغير منصفاً للرستميين والمجتمع التاهرتي بل كان موضوعياً بخلاف باقي مؤرخي الإباضية مثل أبي زكريا الذي يظهر عاطفة مذهبية في مواضع مختلفة من كتابه "السير وأخبار الأئمة". نذكر على سبيل المثال حصار ابن الأشعث لعبد الرحمن بن رستم في جبل سفوجج حيث ردّ سبب فشل هذا الحصار إلى تفشي الجدري في جيش الأشعث، وهذا "في الوقت الذي لم يذكر فيه الأسباب الحقيقية لهذا الفشل"^(٤) زيادة على أن زكريا عاش في (ورجلان) وتوفي بها سنة (٤٧١ هـ/١٠٧٨ م) أي بعد انقضاء الدولة الرستمية بأكثر من قرن، والشيء نفسه يقال عن الشماخي صاحب كتاب السير، والدرجيني صاحب كتاب (طبقات المشائخ) اللذين عاشا في زمنين بعيدين عن زمن الدولة

الرستمية حيث توفي الشماخي سنة (٩٢٨هـ/١٥٢٢م) أما الدرجيني فتوفي في النصف الثاني من القرن (٧هـ/١٣م)^(٥).

وهذا لا ينقص من قيمة الكتب المذكورة بل يزيد من أهمية كتاب ابن الصغير، ومجمل القول إن الكتاب هو تاريخ لتاهرت، وليس للإباضية كما في الكتب السابقة، لأن ابن الصغير كتب تاريخه بدواعي شعوره القوي بالانتماء إلى تاهرت المدينة^(٦).

أما ما يعاب عن كتاب ابن الصغير فهو خلوه من تواريخ وسنوات الأحداث التي يذكرها، ما عدا في مناسبة واحدة حين ذكر: "ثم مات أبو اليقظان سنة إحدى وثمانين ومائتين"^(٧). تنوعت أخبار ابن الصغير بين الرواية الشفوية والمشاهدة، أما الرواية الشفوية فيبدأها بـ: "حدثني بعض من أثق به"، أو: "حدثني غير واحد"، أو: "على ما حدثني به أهل المعرفة". أو: "وقد حكى لي جماعة من الناس". ويختم قوله أحياناً بعبارة: "الله أعلم".

أما المشاهدة فإنها لا تبدأ قبل فترة أبي اليقظان، وهو يتحدث عن بعض مشاهداته مثل حبه للاستطلاع على رمي القاضي الخاتم، والقمطر لأبي اليقظان، وحضوره بعض المناظرات بين الإباضية وغيرهم من المعتزلة.

يتطرق الكتاب إلى الحياة الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع التاهرتي بصفة سطحية نوعاً ما فهو يتحدث عن المذاهب والأعراق والأجناس التي عاشت في تاهرت، ولا يتحدث عن العادات الاجتماعية التي ميّزت كل جنس عن الآخر. ويذكر التجارة الخارجية ولا يذكر البتة عن السلع المتداولة في سوق تاهرت. لكن رغم القلة التي عرفت المعلومات الخاصة بالحياة الاجتماعية والاقتصادية في كتاب "أخبار الأئمة الرستميين" إلا أن ما ذكر رغم قلته مهم ومفيد^(٨).

المحور الثاني// وضع تاهرت الاقتصادي (المالي) في عهد عبد الرحمن بن رستم

يحمل كتاب ابن الصغير الكثير والعديد من الشواهد على تطور الحياة الاجتماعية والاقتصادية في تاهرت، فهو يعاين بدقة تطورها من الحياة البسيطة قبل مجيء الوفد الأول من البصرة إلى الأكثر رخاءً في المرة الثانية بعد ثلاث سنوات.

وكانت الحياة التي وجد الوفد الأول عليها الإمام عبد الرحمن تدل على بساطة العيش، فهو يصلح سقف بيته بالطين بيده بمساعدة غلامه، ويجلس على الحصير، وليس عنده شيء سوى وسادته التي ينام عليها وسيفه ورمحه وفرس مربوطة في ناحية من داره.

أما في المرحلة الثانية فقد أرسل إباضية العراق لعبد الرحمن بن رستم عشرة أحمال من المال، لكنهم وجدوا الأمور قد تبدلت، وأحوال المدينة قد تغيرت، وذلك أنهم نظروا إلى القصور التي بنيت، وإلى

البساتين قد غرست، وإلى الأرحاء قد نصبت، وإلى الخيول قد ركبت، وإلى حفدة قد اتخذت السور، والعبيد والخدام قد كثرت^(٩).

يكاد هذا النمو الاقتصادي والاجتماعي يكون أسطورياً، إذا ما جزمنا أنه قد تم في ظرف أربع سنوات، فمن قرية صغيرة تقبل المساعدات الخارجية إلى مدينة غنية عامرة بالصورة التي تحدثنا عنها. ويمكن أن نصدق كلام ابن الصغير لولا عامل الزمن حيث يُرجح بعض الباحثين أن المدة الفاصلة بين الوفدين أكثر من ثلاث سنوات .

مهما كانت مدة التغيير فلا بد أن هناك عوامل مادية وأسباب اقتصادية ساعدت وعجلت عليه، ما هي هذه العوامل الاقتصادية التي ساعدت على ذلك؟ وما هي مظاهر ونتائج حالة الرخاء التي عاشتها تاهرت؟

أ - الجوانب المادية التي اعتمد عليها المجتمع في تاهرت ..

كانت الإعانات الخارجية أول الموارد التي ساعدت الإمام عبد الرحمن بن رستم وأعيان الإباضية على إنشاء مشاريع من أجل التنمية والتطوير فقد قسمت هذه الأموال إلى ثلاثة أقسام: "ثلث في الخيل، وثلث في السلاح، وثلث وزعت على فقراء الناس وضعفائهم، أما ما بقي من المال فاستُصلحت به الأراضي البور وغرست البساتين وأجريت الأنهار"^(١٠)

أما المورد الثاني للأموال الذي اتخذته الدولة الرستمية في مختلف أطوار وجودها فيتعلق بالتجارة، حيث يقول ابن الصغير: "واستعملت السبل إلى بلد السودان، وإلى جميع البلدان من مشرق ومغرب بالتجارة وضروب الأمتعة"

وقد ساعد موقع عاصمة الدولة الرستمية من السيطرة على سلسلة من الطرق التجارية التي تؤدي إلى مختلف الاتجاهات، وبالتالي جعلها مركزاً هاماً لمدة قرن ونصف تقريباً.

ويذكر الإدريسي سكان تاهرت فيقول: "ولهم تجارات وبضائع وأسواق عامرة".

من أهم العلاقات التجارية كانت تلك التي ربطت تاهرت بالسودان، والتي توجت بسفارة رستمية هناك لتعزيز هذه العلاقة. وكان على رأس هذه السفارة محمد بن عرفة الذي حمل هدايا الإمام الأفلق بن عبد الوهاب إلى ملك السودان^(١١)

وهذا دليل على النضج الذي تمتع به الرستميون في هذا الشأن، وعلى ذكائهم في فتح أسواق خارجية. ويشير في مناسبة أخرى أن أبا حاتم كان أثناء وفاة أبيه اليقظان في مهمة مع وجوه زناتة ليجيروا قوافل قد أقبلت من الشرق، فيها أموال لا تحصى قد خافوا عليها من قبائل زناتة.

أما المورد الثالث فهو الصدقات، يقول ابن الصغير: "وأصحاب شرطته والطائفون به [أي عبد الرحمن بن رستم] قائمون بما يجب، وأهل الصدقة على صدقاتهم يُخرجون الطعام فيقبضون أعشارهم في هلال كل... من أهل الشاة والبعير، ويقبضون ما يجب على أهل الصدقات لا يظلمون ولا يُظلمون..."^(١٢)

وقد ساعد موقع تاهرت على تنامي الثروة الحيوانية وازدهار التجارة الخارجية، مما نتج عنه ظهور بعض الأثرياء؛ نذكر منهم الإمام عبد الوهاب الذي اشتغل بالتجارة، وابن زلغين وابن جرنى بتربية المواشي والدواب (الأغنام، الإبل، الحمير). وينقل الشماخي قول عبد الوهاب الذي يدل على شدة ثراء الثلاثة حيث يقول: "لو لم أكن إلا أنا وابن جرنى وابن زلغين لأغنيا بيت مال المسلمين بما علينا من حقوق شرعية" يقصد الخراج^(١٣).

تمثلت المشاريع التي قام بها عبد الرحمن بن رستم بعد الإعانة العراقية في دعم الطبقة الفقيرة، فتقوية الجيش، ثم الاتجاه نحو المشاريع الاقتصادية، من إجراء الماء، واستصلاح الأراضي والاهتمام بالزراعة والماشية، ينقل ذلك ابن الصغير قائلاً: "ثم شرعوا في العمارة والبناء وإحياء الأموات وغرس البساتين، وإجراء الأنهر، واتخاذ الأرحاء"^(١٤).

ثم يضيف: "فأقاموا على ذلك سنين أو أقل أو أكثر والعمارة زائدة والناس والتجار من كل الأقطار. وقد ساعد ذلك كثرة الأنهار؛ حيث يشير إلى ذلك ابن عذارى المراكشي: "وعزموا على بناء مدينة، فنزلوا بموضع تيهرت، وهي غيضة بين ثلاثة أنهار". ويؤكد ذلك البكري قائلاً: "نهر يأتيها من جهة القبلة يسمى مينة، وهو قبليها، ونهر آخر يجري من عيون تجتمع تسمى تاتش، ومن تاتش شرب أهلها وبساتينها، وهو شرقيها، وفيها جميع الثمار". كما يضيف ابن خرداذبة: "وهي مدينة كبيرة خصبة واسعة البرية والزروع والمياه، أما المقدسي فيصفها قائلاً: "هي بلح المغرب قد أحرق بها الأنهار والتفت بها الأشجار وغابت في البساتين، ونبتت حولها الأعين، وجل بها الإقليم"^(١٥).

ب - مظاهر النمو الاقتصادي في تاهرت ..

انعكس التطور الاقتصادي على البنية الاجتماعية لتاهرت، فحدث تغير كبير، كانت أولى نتائجه الهجرة. كانت المدينة قبله لموجة من الهجرات لعدة أسباب، وفي ذلك يتحدث ابن الصغير قائلاً: "وأنتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصي الأقطار، فقال: "ليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم وابتنى بين أظهرهم لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته وأمانته على نفسه وماله. ويذكر المقدسي أن تاهرت "قد انتعش فيها الغريب، واستطاب بها اللبيب". فظهرت فيها أحياء خاصة بكل مجموعة مهاجرة، ومن الطبيعي أن يكون بينهم إباضيو العراق من البصرة والكوفة، زيادة على إباضيي جبل نفوسة. يقول ابن الصغير: "حتى لا ترى داراً إلا قيل هذا لفلان الكوفي، وهذا لفلان البصري، وهذا لفلان القروي". وقد اتخذت كل جماعة لنفسها حياً نقلت فيها عادات الأجداد، واستقلت بمجلس خاص بها"^(١٦).

وقد ورد في كتاب أخبار الأئمة الرستميين: "... وهذا مسجد البصريين ومسجد الكوفيين". أدت هذه الهجرة إلى تنوع الأجناس والقبائل في تاهرت، حتى سميت بـ "عراق المغرب" يقول اليعقوبي في هذا

الشأن: "والمدينة العظمى مدينة تاهرت جليلة المقدار عظيمة الأمر تسمى عراق المغرب، لها أخلاط من الناس غلب عليها قوم من الفرس" (١٧).

المحور الثالث// الوضعية العامة للمجتمع في تاهرت وطبقاته كما ذكرها ابن صغير

يذكر ابن الصغير المالكي في كتابه مجموعة من القبائل والأجناس التي عاشت في تاهرت وخاصة حينما يتحدث عن الفتنة التي وقعت بعد مقتل ابن عرفة.

وقد ظلت الأسرة الرستمية هي الأسرة الحاكمة، ورغم تكاثرها اعتمد على كفايتهما الشخصية وعلى الجند والتحالفات الأنوية وروابط الولاء، وروابط المصاهرة خاصة، وأهم صورة لذلك زواج عبد الرحمن بن رستم بابنة شيخ قبيلة بني يفرن، وزواج عبد الوهاب بابنة أحد رؤساء البربر (لواتة أو غيرها) خوفاً من مصاهرة بني أوس للواتة وتحالفهم ثم انقلابهم عليه كما استمد الرستميون قوتهم من ولاء نفوسة لهم. أما كلمة العجم فقد وردت مرات عديدة في كتاب ابن الصغير، لكن لا نعلم بالتحديد ماذا يقصد بها، لكن بعكس ما قيل بأنهم من الفرس جاؤوا لما سمعوا بحكم الرستميين لتاهرت لأنهم من نفس الجنس، ففي الأحداث التي حدثت بعد مقتل ابن عرفة على يد أبي بكر ظهر العجم كفئة فاعلة ومؤثرة في هذه الفتنة (١٨).

تحدث ابن الصغير عن الثروة التي جمعها واحد من العجم يقال له ابن ورده الذي ابتنى سوقاً يعرف به، فكان صاحب شرطة "أفلح" إذا تخلل لافتقادها لم يستطع أن يفتقد سوق ابن ورده".

وقد مثل البربر الطبقة العظمى من مجتمع تاهرت وهم نوعان مستقرون داخل تاهرت ورحالة يقيمون خارج المدينة. وعلى رأس المستقرين قبيلة "نفوسة" التي مثلت في وقت من الأوقات العصب الأساسي للدولة، وأصلها من نفوسة الجبل هاجرت إلى تاهرت، أما قبيلة "لواتة" فمنذ مصاهرتها للإمام عبد الوهاب أضحت تلعب دوراً مهماً في الحياة السياسية، إلى أن طردها هواره من مدينة تاهرت فسكنت حصناً لها معروفاً. نستنتج من هذا الحادث أن هواره كانت خارج تاهرت ثم دخلتها، كما يتحدث عن صنهاجة وأنها كانت في صف العجم (١٩).

أما الرُّحْل فمنهم مزاته وسدراته يقول ابن الصغير: "إن قبائل مزاته وسدراته وغيرهما، كانوا منتجعين من أوطانهم التي هم بها من المغرب وغيرها من أشهر الربيع إلى مدينة تاهرت وأحوازها لما حولها من الكلا. ونظراً لأهمية دور قبيلتي زناتة ونفوسة قال عنهما الإمام عبد الوهاب: "ما قام هذا الدين إلا بسيوف نفوسة وأموال زناتة". كما نجد إشارات عند البكري يتحدث فيه عن القبائل التي استقرت على جوانب تاهرت (٢٠).

يظهر أن العرب من خلال كتاب ابن الصغير قد مثلوا فئة مهمة من المجتمع التاهرتي، ويتجلى ذلك في حديثه عن الفتنة التي حدثت على عهد الإمام الأفلح، لكنه لا يوضح صراحة من أين جاء العرب، بل

نفهم ذلك من ثنايا الكلام. فقد ذكر الكوفيين والبصرين، وأنهم أقاموا أحياء وأسواقاً ومساجد خاصة بهم ثم يتحدث عن أهل إفريقية وأنهم كانوا من الجند، ويربط في حديثه عن الفتنة دائماً بين العرب والجند كأنهم فئة واحدة .

ترد كلمة المسيحيين في تحقيق المستشرق موتلانسكي، لكن محمد ناصر وإبراهيم بحاز اللذين أعادا تحقيق الكتاب يؤكدان أن هذا خطأ والصحيح السحيين نسبة إلى السمح بن أبي الخطاب لكن المحقق موتلانسكي أعاد الكرة مرتين وهو ما يبعد فرضية الخطأ. وذكرت قريباً من كلمة المسيحيين كلمة كنيسة؛ يقول ابن الصغير المالكي: "فصعد إلى أعلى موضع بالمدينة يعرف بالكنيسة فضرب الطبل فبادر الناس إليه وأمرهم بأخذ السلاح والزحف على أبي بكر... واتصل ذلك بأبي بكر فابتدر إلى خاصته من السحيين (المسيحيين) والرستميين وغيرهم" (٢١) .

أما اليهود فلا دليل في كتاب "أخبار الأئمة الرستميين" على وجودهم في المجتمع التاهرتي، ولكننا نجد كلمة "الرهانة" التي يعلق عليها محمود إسماعيل قائلاً: "ولا غرابة إذا ما أدركنا تسامح الخوارج مع أعدائهم السياسيين والمذهبيين، وترحيبهم بالغرباء في بلادهم، وليس أدل على ذلك وجود طوائف من اليهود في سجلماسة وتاهرت ففي دولة بني مدرار احتكر اليهود استغلال مناجم الفضة والذهب في درعة، وفي تاهرت عاش الرهانة في أحياء خاصة وهيمنوا على الكثير من أنشطة التجارة ولا غرو فقد ذكر ابن الصغير أن عاصمتي الخوارج غاصتا بجموع التجار من سائر أرجاء العالم الإسلامي على اختلاف مللهم ونحلهم". ومما يثير الشك في هذا التفسير وجود كلمة الرهانة في كتاب ابن الصغير وفي المقطع الذي استشهد منه محمود إسماعيل بالشكل التالي: "... قال لي يوماً ونحن في أعلى مسجد بالرهانة"، حيث نلاحظ تناقضاً بين كلمة مسجد وكلمة رهانة بالمعنى الذي أعطاه محمود إسماعيل، حتى إن ابن الصغير نفسه كان له دكان بالرهانة يبيع فيه ويشتري حيث يقول: "إن لي بالرهانة دكاناً أبيع فيه وأشتري"، زيادة على أنه لا يوجد ما يدل على أن كلمة الرهانة تعني اليهود. ومجمل القول إن وجود كلمة جزية في الكتاب تدل على وجود أشخاص غير مسلمين في مدينة تاهرت (٢٢) .

المحور الرابع// الطبقة الاجتماعية في تاهرت وموقف المذهب الإباضي منها..

نتيجة التطور الاقتصادي الذي عرفته تاهرت ظهرت مجموعة من الطبقات كحتمية، خلقها التطور في البنية الاجتماعية، فظهرت طبقة من الأثرياء أحاطت بالبساتين بالقصور؛ يقول ابن الصغير واصفاً أحد الأثرياء: "وكان لمحمد بن حماد منزل يقال له المثلث قد جمع الأشجار والأنهر والمزارع والنخل والقصور..." (٢٣) .

شاعت ظاهرة بناء القصور منذ عهد الأفلاح بن عبد الوهاب فقد "تنافس الناس في البنين حتى ابتنى الناس القصور والضياح خارج المدينة"؛ كان العجم أكثر الناس ثراءً، بل كان لكثير منهم قصور خارج

المدينة، بها خدم يخرجون إليها للاستراحة. فكان من الطبيعي أن يتخذ الأثرياء طبقة كبيرة من العبيد والخدم جاء بها التجار من بلاد السودان سواء عن ريق سجلماصة أو ورجلان. واشتغلت هذه الطبقة بالزراعة خاصة، والاعتناء بالبساتين أو خَدَمَت داخل القصور.

تحدث ابن الصغير عن مشاهدة الوفد الثاني من البصرة إلى عبد الرحمن بن رستم قائلاً: "ثم توجهت نحو عبد الرحمن بن رستم فوجدوا الأمور قد تبدلت وأحوال المدينة والأشياء قد حالت، وذلك أنهم نظروا إلى قصور قد بنيت وإلى بساتين قد غرست وإلى أرحاء قد نصبت وإلى خيول قد ركبت... والعبيد والخدام قد كثرت..."، كما تضمن كتاب ابن الصغير إشارة حول المرأة الذي لم يكن دوراً بسيطاً؛ بل مساً أهم القرارات في الحكم من خلال حديثه عن دور غزالة زوجة الإمام أبي اليقظان في التأثير عليه من أجل تقليد ابنها أبي حاتم ولاية العهد (٢٤).

وقد كان للعبيد الرستميين ومواشيهم حصن يبيتون فيه يعرف بنماليت في طرف لواتة. يذكر ابن الصغير العوام حين يتحدث عن ولاية الأفلاح بن عبد الوهاب، وأنهم بايعوه دون القبائل الأخرى قبل دخوله تاهرت، ويظهر أن معظم عناصر هذه الطبقة كانت من غير العجم، ولا من مذهب الإباضية، وربما كانوا من العرب جاؤوا إلى تاهرت، واشتغلوا حرفيين خلال مرحلة التطور التي عرفتھا الدولة الرستمية، وتنامت هذه الطبقة لتصبح قوة سياسة مهمة. ويبدو أن محاولة إثبات الذات هي التي فرضت على العامة اتخاذ موقف سبق في مبايعة أبي حاتم. واستطاع مشايخ البلد من غير الإباضية السيطرة على أبي حاتم ومنهم شيخ يعرف بعلوان بن علوان لم يكن من أهل الفقه، بل كانت له رئاسة في البلد ومحبه عند العوام، وكان هؤلاء قد طمعوا أن يبيدوا خبر الإباضية ويطفئوها (٢٥). اختلف انتشار ظاهرة الفقر من مرحلة إلى أخرى، فنجدھا في المرحلة السابقة لإعانة إباضية المشرق لأن المجتمع كان بسيطاً ولم يستطع خلق مصادر للثروة، أما بعد ذلك فقد انتعش الفقير، وتحسنت أحواله بسبب التوزيع العادل لتلك الإعانة

يقول ابن الصغير: "ثم نظر في باقي سائر المال فإذا عرف مبلغه أمر بإحصاء من في البلاد وفيما حولها ثم أمر بإحصاء الفقراء والمساكين، فإذا علم عددهم أمر بجميع ما بقي من مال الصدقة فاشترى منه أكيسة صوفاً وجباباً صوفاً وفراء يؤثر بأكثر ذلك أهل الفاقة من مذهبه" (٢٦). تعتبر الإباضية أكثر المذاهب الخارجية اعتدالاً وتسامحاً، وهذا ما جعل تاهرت تزخر بالمذاهب الإسلامية المختلفة وتتعايش فيما بينها في سلام وأمن في بداية الأمر قبل أن تنشب بينها نار الفتنة. وقد شرح ابن الصغير هذا التطور بوضوح؛ كما أورد معلومات عن حياتھا الاجتماعية. وتعتبر الإباضية نواة تكوين المجتمع التاهرتي، فقد ظل حاكم تاهرت إباضياً رغم الانقسامات التي عرفھا الإباضيون ابتداءً من عهد عبد الوهاب حيث عارض جزءٌ منهم توليته باعتباره خروجاً عن مبدأ الإباضية فسمُّوا بالنُّكَّار فيما سمي مؤيدوه بالوَهَّابية،

وتحدث ابن الصغير كذلك عن الزيدية والعُمرية والعسكرية، لكن رغم هذه الانقسامات في الإباضية فقد دان لعبد الوهاب ما لم يدين لغيره، واجتمع له ما لم يجتمع لغيره (٢٧).

غير أنه يتحدث أحياناً عن الرستمية، ويقصد بها البيت الحاكم عندما يتحدث عن كيد ابن عرفة وزير أبي بكر، ثم يعيد التحدث عن تلك الفتنة التي حدثت في زمن أبي اليقظان فيقول: "أما الرستمية ومن لف لفهم فلحقوا بأبي اليقظان في الموضع الذي يقال له أسكدال". ولا بد أن إباضية تاهرت اتسم بالاعتدال في أفكارها، إذ أنه يصف محمود بن بكر بالغلو وبراءته من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ومعنى هذا أن بقية الإباضية لم يتصفوا بالغلو (٢٨).

يحفل الكتاب بوجود إشارات لغير الإباضية في تاهرت، فنجد يتحدث عن محمد بن بكر الذي يرد على مخالفين الإباضية، ثم يصور ذلك التنافس الذي حدث بين الإباضية ومخالفها قائلًا: "وكان مشايخ البلد من غير الإباضية قد استولت عليه [أي أبو حاتم]، منهم رجل يعرف بأبي مسعود وكان رجلاً كوفياً فقيهاً بمذاهب الكوفيين". ولا ندري ما يعني ابن الصغير بمذاهب الكوفيين، هل مذهب الشيعة أم مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان؟ ونجد يتحدث عن ذلك صراحة عندما يتحدث عن دخول أبي حاتم تاهرت، فيجمع مشايخ البلد إباضيتها وغير إباضيتها.

تحدث ابن الصغير عن المناظرات الشهيرة التي جرت بين المعتزلة وغيرهم من المذاهب على نهر مينة، خاصة مع الإباضية. ويظهر من خلال اختيارهم المناظرة خارج المدينة أنهم كانوا يسكنون قريباً من تاهرت)، حيث يذكر البكري أن عددهم كان حوالي ثلاثين ألفاً في بيوت كبيوت الأعراب (٢٩).

ويصور كتاب أخبار الأئمة الرستميين حياة التسامح التي نعم بها المعتزلة، رغم المواقف التي اتخذوها من الإمام عبد الوهاب خلال فتنة زواجه من بنت أحد زعماء البربر (لواتة))، غير أن أبا زكريا يحيى بن أبي بكر يصور محاربة الإمام عبد الوهاب لهم بشدة، وبلغت قوتهم أن استنجد إلى جبل نفوسة يستمدهم أن يبعثوا إليه جيشاً لمواجهتهم (٣٠).

ولا شك أن هناك عوامل كثيرة جعلت الإطلاع على كتاب ابن الصغير المالكي قبل الخوض في أي دراسة عن مدينة تاهرت شيئاً مهماً وضرورياً لما يحمله من معلومات نادرة عن المجتمع التاهرتي (٣١)، لم ترد في مصادر غيره أو وردت ناقصة. وليس هذا فقط؛ بل هناك عوامل أخرى زادت من أهمية هذا المصدر، منها أن ابن الصغير كان معاصراً للدولة الرستمية، بل مواطناً من تاهرت، ويعتبر شاهد عيان لبعض الأحداث التي عاشتها المدينة.

إن نوعية المعلومات التي يتركها المصدر، والتي ترصد لنا تطور المجتمع التاهرتي من حياة البداوة إلى الحضارة، ثم دخول بعض الأجناس والقبائل الجديدة إلى المدينة، ثم تعقد البناء الاجتماعي، هي معلومات نادرة لا يمكن أن نستغني عنها (٣٢). ورغم ما يؤخذ عن ابن الصغير المالكي من بساطة في

إيراد بعض الأحداث التاريخية، كما نجد المعلومات الخاصة بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي عامة غير مفصلة، فلا نجده يتطرق لعادات العيش ولا للسلع المعروضة في السوق على سبيل المثال. غير أن هذا لا يقلل من قيمة الكتاب، وكل ما نجده من معلومات التطور الذي عرفته المدينة بعد إعانة أهل العراق وعن القبائل والأجناس والطبقات ذات الطابع الاقتصادي التي كوَّنت المجتمع والحياة الاجتماعية للمذاهب المختلفة في تاهرت (٣٣).

الخاتمة:

يمكن ان نلخص اهم نتائج البحث بما يلي

أ// كان مذهب الدولة الرستمية هو المذهب الاباضي في حين كان ابن صغير لا يدين بهذا المذهب مطلقا وبرغم ذلك كان يعتبر المؤرخ الرسمي للدولة مما يدل على سياسة الانفتاح المذهبي والتسامح الذي كان واضحا على معالم الدولة الرستمية .

ب// اعتمد ابن صغير في تأليف كتابه على مصدرين الاول هو الرواية الشفوية المنقولة والمصدر الثاني هو مادونة من خلال مشاهداته الشخصية باعتباره كان معاشيا للحدث .

ج// يظهر من كلام ابن صغير انه يتميز بالموضوعية في الكتابة مستقل النزعة لم يظهر في كتابة ميلا او مبالغة او نكران لمذهب او لجهة وهذا ما مميزة عن باقي مؤرخي الاباضية

د// يعاب على كتابات ابن صغير ندرة التواريخ وسنوات كل حدث واعتماده على السرد والاستطراد في الرواية وذكر الاخبار ومالورد في كتابة هذا من سنين ماذكرة في خبر موت ابي اليقضان سنة ٢٨١هـ .

هـ// ورد في كتابة معلومات اجتماعية واقتصادية عن تاهرت ولكن هذه المعلومات كانت قليلة مما جعل المؤرخين يتهموه بالسطحية في التدوين دون التعمق فهو لا يتحدث عن العادات الاجتماعية التي ميزت اجناس المجتمع التاهرتي.

و// اشار ابن صغير في كتابة هذا الى تحسن الوضع الاقتصادي في تاهرت وبأكثر من شاهد سواء عن جانب الإعانات المادية او من خلال التجارة او من خلال المشاريع ذات العلاقات الاقتصادية الخارجية.

ز// يعلل ابن صغير ان سبب ظهور الطبقة في المجتمع التاهرتي كان نتيجة التحسن الاقتصادي وحصول التطورات والتغيرات في البنية الاجتماعية فظهرت نتيجة لذلك طبقة الاثرياء والطبقة المتوسطة وطبقة العبيد ..

الهوامش :

(١) ابن صغير ، ابي زكريا يحيى ت ٢٩٠هـ ، أخبار الأئمة الرستميين ، تحقيق : محمد ناصر وابراهيم بحار ، ط ١ (بيروت - دار المغرب ١٩٨٦) ، ص ٦٢ .

- (٢) ينظر البكري ، ابو عبيد محمد بن عبد الله ت ٣٤٤ هـ ، المسالك والممالك ، تحقيق : عبد السلام محمد ، ط١ (القاهرة – دار الكتاب ١٩٧٦ م) ، ص ٧٠ .
- (٣) ابن صغير ، أخبار الأئمة ، ص ٦٣ .
- (٤) المصدر نفسه ، ص ٦٤ .
- (٥) للاطلاع أكثر راجع ، الدرجيني ، محمد بن عبد الرحمن ابراهيم بن يونس ت ٦٤٠ هـ ، الضوء اللائح في طبقات المشائخ ، د.ط (القاهرة – مكتبة مديولي د.ت) ، ص ٩٢-٩٣ .
- (٦) ابن صغير ، اخبار الأئمة ، ص ٦٦ .
- (٧) المصدر نفسه ، ص ٦٧ .
- (٨) ينظر ، القاضي ، وداد ، ابن صغير مؤرخ الدولة الرستمية ، ط١ (الجزائر ١٩٧٥) ، ص ١٣ و ص ٤٥ .
- (٩) المصدر نفسه ، ص ١٦ .
- (١٠) المرسي ، صفوت محمد ، التاريخ والحضارة في المغرب العربي في القرن الثالث والرابع الهجري ، ط٢ (مصر ١٩٨١ م) ، ص ٤٤-٤٥ .
- (١١) الحرير ، ادريس صالح ، العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الدولة الرستمية وبلدان جنوب الصحراء ، ط٢ (بيروت ١٩٨٣) ، ص ١٨٤ .
- (١٢) ابن صغير ، اخبار الأئمة ، ص ٦٧ .
- (١٣) الحرير ، ادريس صالح ، العلاقات الاقتصادية ، ص ١٨٩ .
- (١٤) المصدر نفسه ، ١٨٩-١٩٠ .
- (١٥) المراكشي ، ابن عذاري عبد الصمد بن عبد الله ت ٤٠٦ هـ ، البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ، تحقيق : ج.س. كولان وليفى بروفنسال ، ط٢ (بيروت – دار الثقافة ١٩٨٠ م) ، ج ٢ ، ص ٣٥٩ . كذلك المقدسي ، ابو سليمان عبد الله بن يوسف ت ٤٥٥ هـ ، احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق : سليم صويص ، (بيروت - ١٩٧٧) ، ص ٦٣٢-٦٣٣ .
- (١٦) ابن صغير ، اخبار الأئمة ، ص ٩٨ .
- (١٧) المصدر نفسه ، ص ١٠١ . كذلك ، الحرير ، ادريس صالح ، العلاقات الاقتصادية ، ص ١٩٢ .
- (١٨) ابن صغير ن اخبار الأئمة ، ص ١١٨ ، كذلك ، عباس ، احسان ، المجتمع القاهري ، في عهد الرستميين ، مجلة الأصالة ، الجزائر ، العدد ٤٥ ، ١٩٧٥ م ، ص ٢٥ .
- (١٩) ينظر ، اليعقوبي ، عبد الله بن سعيد بن واضح ت ٢٧٩ هـ ، البلدان ، تحقيق : محمد محي الدين ، ط١ (بيروت – دار الكتب العلمية ١٩٩٩ م) ، ص ١٢٩ . طالع كذلك ، الإدريسي ، ابو داود عبد الله بن محمد ت ٣١٠ هـ ، نزهة المشتاق (القارة الافريقية وجزيرة الاندلس) ، تحقيق : اسماعيل المغربي ، ط١ (الجزائر ديوان المطبوعات ١٩٨٣ م) ، ص ٦٩٢-٦٩٣ .
- (٢٠) ابن صغير ، أخبار الأئمة ، ص ١١٩-١٢٠ .
- (٢١) المصدر نفسه ، ص ١٢٢ ، كذلك ، بحاز ، ابراهيم ، تاريخ الدولة الرستمية في القرن الثاني والثالث الهجري ، ط٢ (بيروت ١٩٦٩) ، ص ٩٦-٩٧ .
- (٢٢) يوسف ، جودت عبد الكريم ، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، ط١ (الجزائر – المؤسسة الوطنية للكتاب د.ت) ، ص ١٧٤ .
- (٢٣) المصدر نفسه ، ص ١٧٨ ، كذلك ، العربي ، اسماعيل ، المدن المغربية ، ط٢ (بيروت – دار الفكر ١٩٨٤ م) ، ص ٢٩ .
- (٢٤) ابن صغير ، اخبار الأئمة ، ص ١٢٢ .
- (٢٥) المصدر نفسه ، ص ١٢٥-١٢٦ .

- (٢٦) ينظر ، اسماعيل ، محمود ، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري ، ط١ (بيروت - دار العلم للملايين ١٩٧٦) ، ص ١١١-١١٢ .
- (٢٧) ابن صغير ، اخبار الأئمة ، ص ٢٠١ ، كذلك انظر تعليق الحموي في معجم البلدان ، ياقوت الحموي ، ابي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي ت ٦٢٦ هـ ، معجم البلدان ، ط٢ (بيروت - دار الفكر ٢٠٠٧ م) ، ج ٢ ، ص ٤١٢ .
- (٢٨) ابن صغير ، اخبار الأئمة ، ص ٢٠٤ ، كذلك ، ابي زكريا ، يحيى بن ابي بكر ت ٣٣٠ هـ ، تاريخ ابي زكريا عن الرستميين ، تحقيق : اسماعيل العربي ، ط ٣ (الجزائر - ديوان المطبوعات الجامعية ١٩٨٤ م) ، ص ٥٥١ .
- (٢٩) ينظر ، مرسى ، صفوت محمد ، التاريخ والحضارة ، ص ٥٠-٥١ ،
- (٣٠) ينظر ، ابن صغير ، اخبار الأئمة ، ص ٢١١ .
- (٣١) المصدر نفسه ، ص ٢١٦ ، كذلك ، الحرير ، ادريس صالح ، العلاقات الاقتصادية ، ص ١٩١ .
- (٣٢) القاضي ، وداد ، ابن صغير ، ص ٤٩ ، كذلك محمود ، احمد محمد ، المركز الدبلوماسي لمناطق جنوب الصحراء في القرن الثالث والرابع الهجريين ، ط١ (مصر - دار فؤاد باشا ١٩٦٤ م) ص ٩١ .
- (٣٣) يوسف ، جودت عبد الكريم ، العلاقات الخارجية ، ١٧٨ .

فهرس المصادر الأولية:

- ١- الإدريسي ، ابو داوود عبد الله بن محمد ت ٣١٠ هـ ، نزهة المشتاق (القارة الأفريقية وجزيرة الأندلس) ، تحقيق : إسماعيل المغربي ، ط١ (الجزائر ديوان المطبوعات ١٩٨٣ م) .
- ٢- البكري ، ابو عبيد محمد بن عبد الله ت ٣٤٤ هـ ، المسالك والممالك ، تحقيق : عبد السلام محمد ، ط١ (القاهرة - دار الكتاب ١٩٧٦ م) .
- ٣- الحموي ، ابي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي ت ٦٢٦ هـ ، معجم البلدان ، ط٢ (بيروت - دار الفكر ٢٠٠٧ م) .
- ٤- الدرجيني ، محمد بن عبد الرحمن ابراهيم بن يونس ت ٦٤٠ هـ ، الضوء اللائح في طبقات المشائخ ، د.ط (القاهرة - مكتبة مدبولي د.ت) .
- ٥- ابي زكريا ، يحيى بن ابي بكر ت ٣٣٠ هـ ، تاريخ ابي زكريا عن الرستميين ، تحقيق : إسماعيل العربي ، ط ٣ (الجزائر - ديوان المطبوعات الجامعية ١٩٨٤ م) .
- ٦- ابن صغير ، ابي زكريا يحيى ت ٢٩٠ هـ ، أخبار الأئمة الرستميين ، تحقيق : محمد ناصر و ابراهيم بحار ، ط١ (بيروت - دار المغرب ١٩٨٦) .
- ٧- المراكشي ، ابن عذارى عبد الصمد بن عبد الله ت ٤٠٦ هـ ، البيان المغرب في اخبار الاندلس والمغرب ، تحقيق : ج.س. كولان وليفى بروفنسال ، ط٢ (بيروت - دار الثقافة ١٩٨٠ م) .
- ٨- المقدسي ، ابو سليمان عبد الله بن يوسف ت ٤٥٥ هـ ، احسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، تحقيق : سليم صويص ، (بيروت - ١٩٧٧) .

٩- اليعقوبي ، عبد الله بن سعيد بن واضح ت ٢٧٩هـ، البلدان ، تحقيق : محمد محي الدين ، ط ١ (بيروت - دار الكتب العلمية ١٩٩٩م) .

فهرس المصادر الثانوية :

١٠- اسماعيل ، محمود ، الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري ، ط ١ (بيروت - دار العلم للملايين ١٩٧٦) .

١١- بحاز ، ابراهيم ، تاريخ الدولة الرستمية في القرن الثاني والثالث الهجري ، ط ٢ (بيروت ١٩٦٩) .

١٢- الحرير ، ادريس صالح ، العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الدولة الرستمية وبلدان جنوب الصحراء ، ط ٢ (بيروت ١٩٨٣) .

١٣- عباس ، احسان ، المجتمع القاهري ، في عهد الرستميين ، مجلة الأصالة ، الجزائر ، العدد ٤٥ ، ١٩٧٥م .

١٤- العربي ، اسماعيل ، المدن المغربية ، ط ٢ (بيروت - دار الفكر ١٩٨٤ م).

١٥- القاضي ، وداد ، ابن صغير مؤرخ الدولة الرستمية ، ط ١ (الجزائر ١٩٧٥).

١٦- محمود ، احمد محمد ، المركز الدبلوماسي لمناطق جنوب الصحراء في القرن الثالث والرابع الهجريين ، ط ١ (مصر - دار فؤاد باشا ١٩٦٤ م) .

١٧- المرسي ، صفوت محمد ، التاريخ والحضارة في المغرب العربي في القرن الثالث والرابع الهجري ، ط ٢ (مصر ١٩٨١ م) .

١٨- يوسف ، جودت عبد الكريم ، العلاقات الخارجية للدولة الرستمية ، ط ١ (الجزائر - المؤسسة الوطنية للكتاب دت) .